الكــرنـك

١

الكرنك

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب ١٩٨٨

دار الشروق

«قرنفلة»

اهتديت إلى مقهى الكرنك مصادفة. ذهبت يوما إلى شارع المهدى لإصلاح ساعتى. تطلب الإصلاح بضع ساعات كان على أن أنتظرها. قررت مهادنة الوقت فى مشاهدة الساعات والحلى والتحف التى تعرضها الدكاكين على الصفين. عثرت على المقهى فى تنقلى فقصدته. ومنذ تلك الساعة صار مجلسى المفضل. رغم صغره وانزوائه فى شارع جانبى صار مجلسى المفضل. الحق أنى ترددت قليلا بادئ الأمر أمام مدخله، حتى لمحت فوق كر سى الإدارة امرأة دانية الشيخوخة ولكنها محافظة على أثر جمال مندثر. حركت قسماتها الدقيقة الواضحة جذور ذاكرتى فتفجرت ينابيع الذكريات. سمعت عزفا وطبلا، شممت بخورا، رأيت جسدا يتموج. راقصة، نجمة عماد الدين، الراقصة قرنفلة، حلم الأربعينات الوردى، قرنفلة. هكذا مرقت إلى الكرنك بقوة سحر مبهمة وفؤاد طروب، من أجل شخص لم أمر بباله يوما. لم تقم بيننا علاقة من أى نوع كان، لعاطفة أو مصلحة أو حتى مجاملة، كانت نجمة وكنت أحد المعاصرين. لم تترك نظراتى المعجبة على

جسدها العبقرى أثراً أى أثر، ولا كان لى حق التحية العابرة. من مجلسى أجلت البصر فأحاط بالمكان. كأنه حجرة كبيرة ليس إلا ولكنه أنيق رشيق، مورق الجدران، جديد الكراسى والموائد، متعدد المرايا، ملون المصابيح، نظيف الأوانى، يا له من مجلس ذى جاذبية لا تقاوم. ونظرت إلى قرنفلة طويلا، كلما وجدت فرصة. انطفأ سحر الأنوثة وجف رونق الشباب ولكن حلت محلها روعة غامضة وأسى مؤثر، ما زالت نحيلة رشيقة يوحى عودها بالنشاط والحيوية. وثمة قوة مهذبة مكتسبة من التجربة والعمل. أما خفة الروح فآسرة نفاذة. تحرك نظرتها الشاملة الساقى والجرسون وعامل النظافة وترعى الرواد المعدودين ـ كأنهم لصغر المكان أسرة واحدة ـ بمودة وألفة. يوجد ثلاثة شيوخ لعلهم من أصحاب المعاشات، وكهل، ومجموعة من الشبان بينهم فتاة حسناء، لذلك شعرت بالغربة وبأننى دخيل، رغم نشوتى. وقلت اللهم أنى أحب هذا المكان، القهوة فاخرة والماء نقى عذب والفنجان والكوب آيتان فى النظافة. . عذوبة قرنفلة، وقار الشيوخ، حيوية الشباب، جمال الفتاة، وموقع المقهى فى وسط المدينة الكبيرة يصلح استراحة لجوّال مثلى، وثمة عناق حار بين الماضى والحاضر، الماضى العذب والحاضر المجيد، ثم سحر المصادفة المجهولة. فما أن تعطلت ساعتى حتى وقعت فى غرام متعدد الأبعاد، وإذن فليكن الكرنك مستقرى كلما سمح الزمان.

وحدث ما اعتبرته مفاجأة سارة. بدا أن قرنفلة أرادت مجاملتى بصفتى زبونا جديدا فقامت من مجلسها وجاءتنى تخطر فى بنطلون كحلى وبلوزة بيضاء، وقفت أمامى وقالت:

ـ شرفت .

تصافحنا وأنا أشكر لها مجاملتها فسألتنى :

ـ هل أعجبتك القهوة؟

فقلت بصدق :

ـ جدا ، بن ممتاز حقا . .

فابتسمت بسرور ، ورنت إلى مليا ثم قالت :

ـ يخيل إلى أنك تذكرتنى ؟

ـ فعلا ، من ينسى قرنفلة؟

ـ ولكن هل تذكرت دورى الحقيقى فى الفن؟

ـ أجل ، كنت أول من جدد فى الرقص الشرقى .

ـ هل سمعت أو قرأت أحداً ينوه بذلك؟

فقلت بارتياب :

ـ تصاب الأمم أحيانا بفقدان الذاكرة ولكن ذلك لا يدوم إلى الأبد .

ـ كلام جميل ولا شىء وراء ذلك . .

ـ ولكننى قررت حقيقة لا شك فيها . .

ثم تهربت من الحرج قائلا :

ـ أتمنى لك حياة سعيدة وهو الأهم . .

فقالت ضاحكة :

ـ حتى الآن فالنهاية تبدو سعيدة . .

ثم وهى تودعنى راجعة إلى كرسى الإدارة :

ـ والعلم عند علام الغيوب ! .

هكذا وفى يسر تم التعارف بيننا ، وتمخضت عنه صداقة جديدة سعدت وما زلت أسعد بها . هى جديدة بمعنى من المعانى ولكن جذورها الخفية توغل فى الماضى على مدى ثلاثين عاما أو أكثر . وتتابعت اللقاءات وتراكمت الأحاديث وتوثقت المودة وتذكرت يوما كم كانت محترمة بقدر ما كانت فاتنة بارعة فقلت لها :

ـ كنت فنانة بارعة ومحترمة معا ، ألم يكن يعد ذلك معجزة؟ !

فأجابت بزهو :

ـ كان الرقص الشرقى هزا للبطن والصدر والعجز فجعلته تصويريا . .

ـ وكيف تيسر لك ذلك؟

ـ لم تكن تفوتنى حفلات الرقص الأفرنجى فى البرجولا .

ثم هزت رأسها فى دلال وقالت :

ـ أما الاحترام فقد قام سلوكى العام على ألا أقبل علاقة إلا عن حب ولا أمارسها إلا عن زواج .

فتساءلت بتهيب :

ـ دائما وأبدا؟

فضحكت هاتفة :

ـ ألا يكفى أن يكون الطابع العام هو الاحترام؟

فأحنيت رأسى بالإيجاب، وغمغمت هى بما لم أتبينه، ثم قالت :

ـ الحب الصادق يضفى على العلاقة شرعية غير منكورة .

ـ لذلك لم تتعرض لك مجلة بسوء .

ـ حتى المطرقة!

فقلت باسما :

ـ ولكن كثيرين انحرفوا بسببك!

فتنهدت قائلة :

ـ حياة الليل مترعة بالمآسى .

ـ مازلت أذكر موظف المالية .

فقاطعتنى هامسة :

ـ اسكت، أتقصد عارف سليمان؟ . إنه على بعد أمتار منك، هو الساقى الواقف وراء البار .

استرقت إليه النظر فى وقفته التقليدية . مترهل، أبيض الرأس، تعكس عيناه نظرة ثقيلة وديعة، ولا شك أنها قرأت الدهشة فى عينى فقالت :

ـ لم يكن ضحية لى كما قد تظن ، كان ضحية ضعفه . .

وقصت على قصة عادية . فقد جن بها ولكنها لم تشجعه قط . ولم تكن موارده تسمح له بالتردد الدائم على الملهى فامتدت يده إلى اختلاس أموال الدولة . وظهر بين الرواد كالوارثين ولكنها لم تنل منه مليما واحدا ولم تنشأ بينهما إلا العلاقة الرسمية التى تنشأ بحكم تقاليد الملاهى الليلية ، ولم يتقدم خطوة حتى ضبط متلبسا فقدم للمحاكمة ودخل السجن .

ـ إنها مأساة ولكن لا ذنب لى فيها ، ولما غادر السجن بعد سنوات جاءنى فى الملهى نفسه وقال لى لقد ضعت إلى الأبد ، رثيت له وتوجست منه خيفة فتشفعت له عند صاحب الملهى فألحقه بوظيفة جرسون ، ولما اعتزلت العمل وفتحت هذا المقهى اخترته لعمل الساقى وهو يقوم به على ما يرام .

فمسحت على شاربى متسائلا :

ـ ألم يحن إلى غرامه القديم؟

ـ بلى ، وهو جرسون فى الملهى ، وضايقنى حتى تعرض لعلقة أليمة وكنت يومذاك زوجة للفيل بطل رفع الأثقال ، ثم تزوج بعد عام من راقصة من الكومبارس ما زالت زوجته ، وأما لسبع بنات من صلبه ، وأعتقد أنه اليوم موفق وسعيد . . .

ثم وهى تغرق فى الضحك :

ـ يحلو لنا أحيانا اليوم أن نتبادل الحب شفويا .

هكذا الماضى ينسى؟

ـ ولكن كان له زميل وثب على غير توقع إلى وظيفة وكيل المالية، كان ينقم على الحياة من أجله حتى أحالته الثورة إلى المعاش فهدأ ثائره وعشق الثورة.

انضممت إلى أسرة الكرنك بصفة نهائية ونفذت الأسرة فى صميم حياتى. منحتنى قرنفلة صداقتها ومنحتها، لعبت النرد مع الشيوخ محمد بهجت ورشاد مجدى وطه الغريب. عرفت الشباب وعرفونى خاصة زينب دياب وإسماعيل الشيخ وحلمى حمادة، كما عرفت زين العابدين عبد الله مدير العلاقات العامة بإحدى المؤسسات، حتى إمام الفوال الجرسون وجمعة مساح الأحذية وعامل النظافة صارا لى صديقين وعرفت سر الكرنك الاقتصادى فهو لا يعتمد أساسا على زبائنه المحدودين ولكن على أصحاب الحوانيت بشارع المهدى وزبائنهم، وهو السر وراء جودة مشروباته وامتيازها. ومن أسراره أيضا أنه كان ـ وما زال ـ مجمع أصوات عظيمة الدلالة، تفصح نيرانها العالية والخافتة عن حقائق التاريخ الحى. لا يمكن أن تنسى أحاديث القوم على عهد انضمامى إليهم. لا يمكن أن ينسى امتنان قرنفلة وهى تقول عند أى مناسبة:

ـ لنحمد الله الذى أنعم علينا بالثورة.

وكان عارف سليمان الساقى وزين العابدين مدير العلاقات العامة يقدسان الثورة أيضا، كل بطريقته ونواياه، ولم يكن الشيوخ أقل حماسا وإن رددوا أحيانا وبحذر شديد:

ـ لم يكن الماضى شرا خالصا .

ومن ركن الشاب انبعث الحماس فوارا كالهدير . عند أكثريتهم يبدأ التاريخ بالثورة مخلفا وراءه جاهلية مرزولة غامضة . إنهم أبناؤها الحقيقيون ولولاها لتشرد أكثرهم فى الأزقة والحوارى والضياع . قد تند عنهم أيضا أصوات معارضة توحى بيسارية متطرفة أو إخوانية حذرة هامسة ولكنها لا تلبث أن تضيع فى الهدير الشامل . ولفت نظرى بصفة خاصة إمام الفوال الجرسون وجمعة مساح الأحذية ، يتغنيان بعنتر وفتوحاته ، يعانيان مرارة العيش ولكنهما يتغنيان بعنتر وفتوحاته ، كأن الفقر قد هان عليهما من أجل النصر والكرامة والأمل . على أن تلك النشوة لم يزهد فيها أحد حتى الحاسدون والحاقدون . لم يخل أحد من رواسب الذل والهزيمة والخذلان فألهبهم الظمأ نحو الكأس المترعة بتحديات العدو القديم ، ، نهلوا منها حتى الثمالة وراحوا يرقصون من وجد الطرب ، وأى جدوى ترجى من النقد عند السكارى؟ . أتقول الرشوة . . الاختلاس . . الفساد . . القمع والإرهاب؟ . . طظ ، أو فليكن ، أو أنه شر لا بد منه ، أو ما أتفه ذلك ، خذ رشفة من الكأس السحرية وارقص معنا .

* * *

عندما ترجع قرنفلة من عند الحلاق تسترد إلى حين قدرا من الجمال وتشتعل الحيوية فى عينيها العسليتين . وأغرانى ذلك مرة لأن أسالها :

ـ لا زوج الآن ولا ذرية؟ .

ولكنهـا لـم تجب وندمت على ما فـرط منى . ولما لمست ضيـقى قالت لتخفف على وهى تشير إلى الزبائن :

ـ أحب هؤلاء ويحبوننى .

وتمتمت لغير ما سبب واضح :

ـ الحب . . الحب .

فقالت بأسى :

ـ طالما تمتـــعنا بحب من نـحب ولـكن لا يخلـد من الحب إلا الخيبة . . .

ـ الخيبة؟ .

ـ هى الحب الذى ينجو من مخالب الواقع ويبقى أملا خلابا .

فبحذر سألت :

ـ هل خاب لك حب؟

ـ ليس ذلك تماما ولكن الحب يتدلل أحيانا .

ـ أحدث ذلك أيام المجد؟ .

ـ قد يحدث فى أى يوم .

تشوقت إلى سماع المزيد ولكنها تجاهلت رغبتى ولحظت بطرف عينيها زين العابدين عبد الله وقالت :

ـ انظر إليـه . إنه يحبنى ، مـاذا يـريد؟ . يقـتـرح مـشـاركـتى فى المقهى وتحويله إلى مطعم ولكنه يطمع أولا فى فراشى! .

ـ إنه مكتنز بالدهن .

ـ أحلام لن تتحقق .

ـ لعله غنى ؟ .

ـ البركة فى أموال الدولة ! .

فاتجه رأسى بحركة تلقائية نحو عارف سليمان الساقى ولكنها قالت :

ـ ذاك اختلس من أجل الحب ، أما زين العابدين فينهب من أجل الطمع والطموح ، إنهم أنواع يا عزيزى ، منهم من يأخذ لضرورة العيش لتقصير الحكومة فى حقهم ، ومنهم الطامحون ، ومنهم من يأخذ اقتداء بالآخرين ! . وبين هؤلاء وأولئك يجن الشبان المساكين

فقلت بإصرار :

ـ نعود إلى موضوعنا الأصلى .

فقالت بتحد :

ـ أنت تعلم أننى أحب ! .

وكنت قد لاحظت أمورا فضبطتنى متلبسا بمراقبتها فقالت :

ـ لا تسألنى عنه فلست غبيا .

فقلت باسما :

ـ حلمى حمادة ؟ ! .

فمضت دون استئذان إلى كرسى الإدارة ومن هناك رمتنى

بابتسـماة عـذبة . خيل إلى فى وقت من الأوقـات أنه إسمـاعـيل الشيخ وسرعـان ما اكتشفت عـلاقته الحميمة بزينب دياب . ثم وضح الأمـر . وحلمى حـمـادة فـتى رشـيق ووسـيم أيضـا وذو مناقشات عصبية . وقد اعترفت لى قرنفلة بأنها هى التى بادأته بالغزل، وأمام رفاقه أيضا . وتابعت مرة رأيًا سياسيا يدلى به ثم هتفت له وهى جالسة على مقربة منه :

ـ ليحيى كل من تريد له الحياة وليمت من تريد له الموت!

ولما لبى دعوتها لزيارة شقتها فى الدور الرابع من العمارة التى تقع الكرنك أسفلها استقبلته استقبالا فاخرا، زينت حجرة الجلوس بالورود ومدت مائدة حافلة وتصاعدت أنغام راقصة من جهاز تسجيل . وقد قالت لى بثقة :

ـ وهو يحبنى أيضا ، ثق من ذلك .

ثم قالت بجدية :

ـ ولكنه لا يدرك مدى حبى العظيم . .

ثم بامتعاض :

ـ ولا يبعد أن يمضى يوما بلا رجعة . .

وهزت منكبيها وتمتمت :

حكاية قديمة لا جديد فيها .

ـ تعرفين كل شئ ثم تصرين عيل المضى فى طريقك .

قول سخيف يصلح شعارا للحياة.

فقلت باسما:

ـ أشكرك نيابة عن الأحياء..

ـ ولكنه جاد وكريم، وهو أول من تحمس لمشروعى.

ـ أى مشروع من فضلك؟.

ـ كتابة مذكراتى، إنى متحمسة لدرجة الهوس، ولم يعفنى إلا عجزى عن الكتابة!.

وبحماس أيضا:

ـ أيهتم حقا بالفن وتاريخه؟.

ـ هذا جانب من الجوانب، أما الجوانب الأخرى فتدور حول رجال مصر ونسائهم فى حياتهم الخفية!.

ـ أناس العهد الماضى؟.

ـ والحاضر!.

ـ فضائح وما أشبه ذلك؟.

ـ لا تخلو أحيانا من فضائح ولكن أهدافها أخطر من ذلك.

فقلت محذرا:

ـ إنه مشروع له خطورته.

فقالت باهتمام وفخار:

ـ وستقوم له القيامة عند نشره ! .

فقلت ضاحكا :

ـ هذا إذا قدر له النشر ! .

فتجهم وجهها وقالت :

ـ يمكن نشر الجزء الأول دون متاعب .

ـ عظيم ، ودعى الجزء الثانى للزمن .

فتمتمت برجاء :

ـ لقد عاشت أمى تسعين عاما .

فقلت برجاء أيضا :

ـ ربنا يطول عمرك يا قرنفلة .

* * *

وجئت يوما فى ميعادى فوجدت مقاعد الشباب خالية . تبدى المقهى فى منظر غريب وخيم عليه هدوء ثقيل . وانشغل الشيوخ بألعابهم وأحاديثهم أما قرنفلة فجعلت تنظر نحو مدخل المقهى بترقب وقلق . وجاءت وجلست إلى جانبى وهى تقول :

ـ لم يجئ أحد منهم ، ماذا جرى ؟ .

ـ لعل موعدا شغلهم ؟ .

ـ كلهم ! . ألم يكن بوسعه أن يخبرنى ولو بالتليفون ؟

ـ أظن أنه لا داعى للقلق .

فقالت بحدة :

ـ ولكن توجد دواع للغضب .

ومضت الليلة دون ظهور أحد منهم ، وحتى مساء اليوم التالى لم يظهر لأحد منهم أثر . وتغير طبع قرنفلة ومضت تنتقل بين الداخل والخارج فى عصبية .

وسألتنى :

ـ ما تفسير ذلك فى نظرك؟ .

فحركت رأسى فى حيرة ، وقال زين العابدين عبد الله :

ـ إنهم شبان لا يثبتون على حال ولعلهم انتقلوا إلى مكان أنسب لهم . .

فقالت له بغضب :

ـ يا لك من غبى ! ، ولمَ لم تنتقل أنت إلى مكان أنسب لك؟ .

فضحك ببلاده منيعة وقال :

ـ إنى فى أنسب مكان لى . .

وقلت على سبيل المواساة :

ـ سنراهم فجأة مقبلين . .

فقالت لى همسا :

ـ الحزن يقتلنى قتلا .

فسألتها برقة :

ـ ألا تعرفين أين مسكنه؟ .

ـ كلا ، فى مكان ما بالحسينية ، وهو طالب بكلية الطب ولكن الجامعة مغلقة لعطلة الصيف ، لا أدرى شيئا كما ترى .

وكرت الأيام والأسابيع حتى أوشكت قرنفلة على الجنون ، وحزنت لها حزنا بالغا حتى قلت لها :

ـ أنت تهلكين نفسك بلا رحمة .

ـ لست فى حاجة إلى الرحمة ولكنى بحاجة إليه .

وتجنب زين العابدين العاصفة بالصمت والانزواء وكان يدارى ارتياحه العميق بالتهجم والاستغراق فى النارجيلة . ويوما قال طه الغريب :

ـ سمعت عن أنباء اعتقالات واسعة .

فوجمنا جميعا ، وقلت :

ـ ولكن أغلبيتهم تنتمى للثورة . .

فقال رشاد مجدى :

ـ ولكن توجد أقلية مخالفة لا يستهان بها .

فقال محمد بهجت :

ـ وضح الحق، قد أرادوا اعتقال المتهمين فساقوا أصدقاءهم معهم حتى يتم التحقيق.

وكانت قرنفلة تتابع الحديث بذهول كالبلاهة وترفض أن تفهم شيئا أو تقتنع بشئ.

وجرى الحديث بيننا تعليقا على الحدث:

ـ الاعتقال فعل مخيف حقا.

ـ وما يقال عما يقع للمعتقلين أفظع.

ـ شائعات يقشعر منها البدن.

ـ لا تحقيق ولا دفاع.

ـ لا يوجد قانون أصلا.

ـ يقولون إننا نعيش ثورة يستوجب مسارها تلك الاستثناءات.

ـ وأنه لا بد من التضحية بالحرية والقانون ولو إلى حين.

ـ ولكن مضى على الثورة ثلاثة عشر عاما أو يزيد فآن لها أن تستقر على نظام ثابت.

أما قرنفلة فقد أهملت عملها. كانت تغيب بعض النهار كله وأحيانا اليوم بأكمله، تاركة المقهى لعارف سليمان وإمام الفوال. وقالت لى:

ـ لم أدع أحدا من كبراء الماضى أو الحاضر إلا زرته وسألته، ولا جواب عند أحد ولكنك تسمع كلاما غير متوقع مثل «من

أدرانا؟» أو «حذار من السؤال وإلا ساءت العواقب» أو «لا ترحبى بالشاب فى مقهاك». ماذا حصل للدنيا؟!

وإذا بفكرى يتقمص انطلاقة جديدة دافعها الأول الحزن العميق. قلت لنفسى حقا إن حياتنا تزخر بالآلام والسلبيات ولكنها فى جملتها ليست إلا النفايات الضرورية التى يلفظها البناء الضخم فى شموخه وأنها يجب ألا تعمينا عن العظمة فى تولدها وامتدادها. هل عرفنا ما كان يعانيه ساكن الحارة فى القاهرة عندما كان صلاح الدين يحقق انتصاره الحاسم على الصليبيين؟، هل تخيلنا آلام أهل القرى عندما كان محمد على يكون إبراطورية مصرية؟، هل تصورنا عصر النبوة فى حياته اليومية والدعوة الجديدة تفرق بين الأب وابنه والأخ وأخيه والزوج وزوجته، تمزق العلاقات الحميمة وتحل العذاب مكان التقاليد الراسخة؟ وبالمثل ألا يستحق انشاء دولتنا العلمية الاشتراكية الصناعية التى تملك أكبر قوة فى الشرق الأوسط، ألا تستحق أن نتحمل فى سبيلها تلك الآلام؟! وكنت أشعر طيلة الوقت بأنه يمكن أن أقنع نفسى بضرورة الموت وفائدته بمثل هذا المنطق.

* * *

وما ندرى ذات أصيل إلا والوجوه الغائبة المفتقدة تهل علينا بفرحة مباغتة. زينب دياب وإسماعيل الشيخ وحلمى حمادة وبضعة نفر آخرين، أما البقية فلم نر لها أثراً بعد ذلك. هللنا مرحبين، حتى زين العابدين عبد الله اشترك معنا، أما قرنفلة فتراخت فى جلستها كأنما غفت أو أغمى عليها، لم تنطق بحرف ولم تتحرك، حتى مثل أمامها حلمى حمادة فقالت له بصوت متهدج:

ـ سأنتقم منك!

ثم أجهشت فى البكاء. وسأل سائل:

ـ أين كنتم يا جماعة؟

فأكثر من صوت أجاب:

ـ فى نزهة..

وضجوا بالضحك. وعاد المرح ولكن الوجوه تغيرت، فالرءوس الحليقة أضفت على السحن غرابة فضلا عن ذبول واضح فى النظرة والحيوية. وتساءل صوت ـ لعله زين العابدين ـ قائلا:

ـ ولكن كيف حدث ما حدث؟

فصاح إسماعيل الشيخ:

ـ دعونا من هذه السيرة..

وهتفت زينب فى غبطة:

ـ سلمى يا سلامة، رحنا وجينا بالسلامة.

وسمعت اسما يتردد، لا أدرى كيف تردد ولا من كان أول ناطق به، خالد صفوان.. خالد صفوان.. ولكن من هو خالد صفوان؟... محقق؟!.. مدير سجن؟!.. أكثر من صوت يردد: خالد صفوان.. وكنت أختلس من الوجوه النظرات وأكاد ألمس المعاناة والذهول وراء الأقنعة.. وممكن أن أقول إن الحياة فى الكرنك استعادت روتينها اليومى ولكنها فى الواقع فقدت قدرا

لا يستهان به من صميم روحها . أسدل ستار كثيف عى فترة الغياب المجهولة فمضت كسر مثير تحوم حوله الأسئلة وترتد خائبة . ورغم المرح والأحاديث انتشر الحذر فى الجو مثل رائحة غريبة مجهولة المصدر . وتحملت كل نكتة بأكثر من معنى وكل إشارة بأكثر من مغزى وكل نظرة التبست فيها البراءة بالتوجس . وقالت لى قرنفلة :

ـ الأولاد عانوا كثيرا .

فسألتها بلهفة :

ـ هل قال لك شيئا؟

ـ إنه لا يتكلم وفى ذلك ما يكفى .

أجل ، فى ذلك ما يكفى . نحن فى زمن القوى المجهولة وجواسيس الهواء وأشباح النهار . وجعلت أتخيل وأتذكر . تذكرت سير المجرمين وملاحم العذاب وبراكين القلوب السود ومعارك الغابات . وقلت لنفسى مستعيذا من ذكرياتى أن الدناصير استأثرت بالأرض ملايين السنين ثم هلكت فى ساعة من الزمان فى صراع الوجود والعدم فلم يبق منها اليوم إلا هيكل أو هيكلان . وعندما يلفنا الظلام أو تسكرنا القوة أو تطربنا نشوة تقليد الآلهة فإنه يستيقظ فى أعماقنا تراث وحشى ويبعث فينا العصور البائدة . وظلت معلوماتى ترتكز على الخيال حتى أتيح لى بعد ذلك بسنوات أن تفتح لى القلوب المغلقة فى ظروف جد مختلفة وتمدنى بالحقائق المرعبة وتفسر لى ما غمض على فهمه من الأحداث فى إبان وقوعها .

ولم يكف زين العابدين عبد الله يوما عن التحلى بالصبر وترقب الفرصة المواتية، ولا شك أن رجوع حلمى حمادة قد أفسد خطته وحرك مخاوف اليأس فى أعماقه فدفعه ذلك إلى تجاوز حرصه المعهود فقال مرة باستهتار على مسمع من قرنفلة :

ـ إن وجودهم بالمقهى خليق خليق بالإساءة إلى سمعته . .

فسألته قرنفلة :

ـ متى تنوى الرحيل؟

فتجاهل قسوتها وقال بنبرة الوعاظ :

ـ لى مشروع جم الفوائد يستحق العناية والجدية . . .

وسألنى مستوهبا تأييدى :

ـ ما رأيك فى المشروع؟

فسألت بدورى قرنفلة :

ـ ألا ترغبين فى الإسهام بقوة أكبر فى الرأسمالية الوطنية؟

فقالت بسخرية :

ـ ولكنه يطمع فى المال وصاحبة المال .

فبادرها قائلا

ـ اقتراحى يتعلق بالعمل وحده أما القلوب فشئونها بيد اللله ذى الجلال!

فلم تعن بمناقشته أكثر ، وبدا أن العشق يستأثر بلبها كله . وطالما شعرت بأنها تمثل دور العاشقة العمياء فامتلأ قلبى نحوها بالعطف والإشفاق . ولم أشك فى أن الفتى يحبها حب مراهقة ، هى تتقن كيف تفتنه وتسره وهو ينهل من منابع حنانها ، ولكن حتى متى يدوم ذلك؟ . وكانت إلى ذلك تساورنى بعض الشكوك من ناحية أطماعه ولكنها قالت لى بثقة لا حد لها :

إنه نظيف بقدر ما هو ذكى ، ليس من النوع الذى يبيع نفسه . . أفلحت لو صدقت . ولا أملك ما يدعونى للشك فى صدقها ، ثم إن منظر الشاب وحديثه يدعوان للثقة وان شابه الغموض أحيانا والعنف فى كثير من الأحايين ، ولكن ما جدوى كل ذلك حيال الحقيقة المجسدة وهى أن قرنفلة قد جاوزت خريف العمر وأنه لم يبق لها من تراث الإغراء إلا المال والإخلاص؟! . وقد قال لى زين العابدين مرة :

ـ لا يغرنك منظره . .

فعلمت أنه يتحدث عن حلمى حمادة وسألته :

ـ ماذا تعرف عنه؟

ـ إنه برمجى عصرى أو قناع خداع .

وصمت لحظة ثم واصل :

ـ وفى اعتقادى أنه يحب زينب دياب وسوف يخطفها يوما من إسماعيل الشيخ . .

وأثارت كلمته قلقى لا لأننى اعتبرتها افتراء ولكن لأنها أيدت مشاهداتى عن المجاملات المتبادلة بين حلمى وزينب. وطالما ساءلت نفسى أهى مودة حميمة أم أكثر من ذلك؟

ولما كانت صداقتى لقرنفلة قد أصبحت راسخة فقدواتتنى الشجاعة لأقول لها :

ـ إنك خبيرة بالحياة والحب.

فقالت بزهو :

ـ لا يجوز لأحد أن يشك فى ذلك.

فتمتمت :

ـ ومع ذلك.. ؟

ـ ومع ذلك؟!

ـ هل تؤمنين بنهاية سعيدة لحبك؟

فقالت بإيمان :

ـ عندما تحب حقا فإنما تستغنى بالحب عن الحكمة والبصيرة والكرامة.

واقتنعت بأنه من العبث أن تناقش عاشقا فى عشقه..

* * *

وللمرة الثانية اختفى الشبان.

وقع المقدر فجأة وبلا سابق إنذار كما حدث فى المرة الأولى.

ولم يقع أحد منا فى حيرة التساؤل وعذاب الشك ولكن اجتاحنا الانزعاج والذهول.

وترنحت قرنفلة تحت عنف الضربة وتأوهت قائلة:

ـ ما كنت أتصور أننى سأتعرض لمرارة التجربة مرة أخرى.

ومن شدة الأسى صعدت إلى شقتها.

وهيأ لنا غيابها حرية للمناقشة فقال طه الغريب:

ـ حتى أنا ورغم البراءة والسن بت أخشى على نفسى.

فقال رشاد مجدى متهكما بالرغم من شحوب وجهه:

ـ ممكن أن يشك فى أمرك رجال الثورة العرابية لا هذه الثورة!

وتساءل محمد بهجت:

ـ ترى ما وراء ذلك؟

فقال زين العابدين عبد الله:

ـ إنهم شبان ذوو خطورة فما وجه العجب فيما يقع لهم؟

ـ ولكنهم من أبناء هذه الثورة!

فضحك زين العابدين وقال:

ـ الانتماء إلى الثورة حجة شائعة بين أعدائها، كنت فى شبابى إذا ضبطنى أحد فى الطريق إلى درب طياب تعللت بأننى ذاهب للصلاة فى الجامع الأحمر!

فقال طه الغريب :

ـ إنهم يبدعون فى نشر الرعب سامحهم الله .

وبعد مرور أيام جالستنى قرنفلة ، طالعتنى بوجه كئيب ثم سألتنى باهتمام :

ـ خبرنى عن معنى ذلك؟

قرأت خواطرها الخفية ولكننى تجاهلتها ، فقالت :

ـ توجد حولنا أسرار !

فتمتمت :

ـ ربما .

ـ بل هو مؤكد ، جميع الناس يتكلمون ولكن من الذى يبلغ الكلام؟

فقلت بعد تردد :

ـ أنت أدرى بالمكان . .

ـ لا شك لدى فى رجالى ، عارف سليمان مدين لى بحياته . إمام الفوال من رجال الله ، وكذلك جمعة .

فقلت :

ـ وشيوخ المعاش فى عزلة على شاطئ الحياة . .

وتبادلنا نظرة طويلة ولكنها قالت :

ـ زين العابدين وغد ولكن لا صلة له بالسلطة فضلا عن أنه يخشاها لانحرافه .

فقلت :

ـ يعبر بالمقهى كثيرون ونحن لا نلقى إليهم بالا .

فتنهدت وقالت بامتعاض شديد :

ـ لم يعد فى الدنيا أمان . .

ورجع الصمت المشحون بالأسى وقعدت قرنفلة على كرسى الإدارة كتمثال فاقد الحياة . أجل كانت أمثال تلك الحوادث تقع كل يوم ولكن تأثيرها يختلف إذا وقعت فيمن يعدهم الإنسان أسرته . وشككنا فى كل شىء حتى الجدران والموائد . وعجبت لحال وطنى . إنه رغم انحرافه يتضخم ويتعظم ويتعملق ، يملك القوة والنفوذ ، يصنع الأشياء من الإبرة حتى الصاروخ ، يبشر باتجاه إنسانى عظيم ، ولكن ما بال الإنسان فيه قد تضاءل وتهافت حتى صار فى تفاهة بعوضة ، ما باله يمضى بلا حقوق ولا كرامة ولا حماية ، ما باله ينهكه الجبن والنفاق والخواء . وفقد زين العابدين أعصابه فجأة وبلا سبب محدد وراح يقول :

ـ أنا حزين ، أنا سيئ الحظ ، أنا تعيس ، اللعنة على يوم ولدت ويوم عرفت هذا المقهى . .

تجاهلته قرنفلة فمضى يقول متحديا :

ـ ما ذنبى ؟ إنى أحبك فما ذنبى ؟ لماذا تسيئين إلى كل يوم ؟

ألا تعلمين أنه يقتلنى قتلا أن أراك وأنت تموتين حزنا؟ لماذا؟ لا تحتقرى حبى، الحب لا يحتقر، إنه أسمى من ذلك وأعظم، ، أسفى عليك تبعثرين الأيام الباقية من عمرك العزيز بلا رحمة، وترفضين أن تعترفى بأن قلبى هو القلب الوحيد الذى يعبدك . .

وخرجت قرنفلة من صمتها وقالت تخاطبنا نحن :

ـ هذا الرجل لا يريد أن يحترم حزنى!

فقال زين العابدين بمرارة :

ـ أنا! إنى أحترم أوباشا ومنافقين ومجرمين وقوادين ومرتشين فكيف لا أحترم حزن من علمنى تقديس الحزن من حزنى عليه؟! . معذرة، أحزنى، استسلمى لقضائك، تمرغى فى وحل الأيام، ربنا معك . . .

فقالت بهدوء :

ـ لعله من الأفضل لك أن تذهب .

ـ لا مكان لى إلا هنا، وأين أذهب؟ على الأقل يوجد هنا وهم جنونى أخاله أحيانا أملا . .

وسرعان ما عاد إلى رشده وهدوئه وهو خجلان . ولكى يسدل ستارا على تهوره نهض بقوة ورشاقة جندى، فنظر نحو قرنفلة وقال :

ـ أعتذر .

وحنى رأسه تحية ثم جلس وراح يدخن نارجيلته .

وجاء الشتاء ببرده القارص ولياليه الطويلة فتذكرت أن الشبان كانوا يتلاقون فى المقهى حتى فى الشتاء ـ وقت الدراسة ـ ولو ساعة واحدة، وقلت لنفسى إن المقهى بدونهم لا يحتمل. لم يبق إلا الشيوخ وقد نسوا المعتقلين وتناسوا الرعب والسياسة فعكفوا على همومهم الشخصية، وكأنه لم يعد لهم من عمل إلا انتظار الأجل. وراحوا يبكون الأيام الماضية ويتبادلون وصفات بقصد خفى واحد هو تأجيل الموت.

ـ كل واشرب ولا تهتم فهذا خير شعار فى الحياة.

ـ غير ريقك على كوب ماء ويا حبذا لو عصرت عليه نصف ليمونة.

ـ قال حكيم قديم إنى أعجب لآل مصر كيف يمرضون وعندهم الليمون.

ـ الطب الحديث يقرر أن صعود السلم مفيد للقلب.

ـ ومفيد له أيضا المشى.

ـ ويقولون إن الجماع مفيد أيضا للقلب.

ـ السياسة وأنباء الاعتقالات ومعاصرة العظماء.

ـ الزبادى مدهش والفاكهة أما العسل الممزوج بإفراز الملكة فحدث عنه ولا حرج.

ـ والضحك، لا تنسوا الضحك.

ـ وكأس واحدة بالثلج قبيل النوم.

ـ والهرمونات لا يجوز الاستهانة بها .

ـ ومنوم احتياطى للأخبار المزعجة . .

ـ وبعد كل شىء وقبل كل شىء قراءة القرآن . .

أجل . المقهى بلا شباب لا يحتمل ، وحتى قرنفلة لا تدرى بأحزانى ، ولا تدرى أن الصداقة قوية وظمأى مثل الحب نفسه ، وها أنا أتجرع الملل وأعانى الوحشة وأرمق الكراسى الجامدة الصامتة بقلب مشوق حزين يتلهف على مناجاة أصحابها لتنقدح فيه نشوة الحماس والإبداع والآلام المقدسة .

* * *

ولدى إقبالى على المقهى ذات مساء لمحت وجه قرنفلة مشرقا على غير عادته . دهشت حقا واجتاحنى فيض من الأمل فاندفعت نحو الداخل ، وسرعان ما وجدتنى حيال الأصدقاء المحبوبين ، زنيب وإسماعيل وحلمى واثنين أو ثلاثة آخرين . وتعانقنا بحرارة وضحكة قرنفلة تباركنا ، وتبادلنا الأشواق متجنبين أين وكيف ولماذا ، ولكن تردد فى همس اسم خالد صفوان الذى صار رمزا من رموز حياتنا لا تكمل إلا به وقالت لى قرنفلة :

ـ تصور أنه قد وقع سوء تفاهم فى مطلع الشتاء وأن البراءة ثبتت فى مطلع الصيف ولا تسأل عن مزيد ، حسبك أن تتصور إن استطعت . .

ليكن . لا حيلة لنا فى ذلك . وقلت لها :

ـ ولنتصور أيضا أن المقهى أذن كبيرة!

وتجنبنا حديث السياسة ما وسعنا ذلك، وقلت لها :

ـ إذا دعت ضرورة إلى الخوض فى موضوع وطنى فلنتكلم متخيلين أن السيد خالد صفوان يجالسنا.

ولكن الخسارة تبدت ملموسة أكثر من المرة الماضية. هزلوا كأنهم خارجون من مجاعة، لاحت بأعينهم نظرة حزينة وساخرة، ورسب فى زوايا أفواههم امتعاض راسخ. إن حرارة الحديث تذيب الرواسب فإذا فرغوا منه وخلوا إلى أفكارهم اختفت الأقنعة وتجلى الفتور والعزلة. حتى العلاقة الحميمة بين زينب وإسماعيل تعانى داء خفيا لا يكاد يرى عند النظرة العابرة الأمر الذى أثار عواطفى وتساؤلاتى. يا ألطاف الله، إن الآلة الجهنمية تطحن أول ما تطحن أصحاب الرأى والإرادة، فماذا يعنى هذا؟

وجالستنى قرنفلة مرة فلاحظت أنها راضية ولكنها غير سعيدة. وكنت أعلم أنها لا تجالسنى إلا للبوح بشىء فقلت أفتتح الحديث :

ـ لندع الله ألا يتكرر المكروه..

فقالت بأسى :

ـ ادع الله كثيرا جدا، قل له إننا فى حاجة شديدة إلى دليل حى على رحمته وعدله...

فسألتها بإشفاق :

ـ ماذاوراءك؟

ـ الذى رجع إلى حضنى خيال فأين إذن حلمى حمادة؟

ـ لعلك تقصدين الصحة ، ولكنهم كلهم فى البلوى سواء ، وسوف يستردون العافية خلال أيام . . .

ـ لعلك لا تدرى أنه شاب شجاع ذو كبرياء . وأن مثله يكون عرضة للشر أكثر من غيره . .

ثم قالت وهى تحدجنى فى عينى :

ـ لقد فقد القدرة على السعادة !

فلم أفهم تماما ما تعنيه فعادت تقول :

ـ لقد فقد القدرة على السعادة !

ـ لعلك تبالغين فى التشاؤم . .

ـ كلا ، وأنا لا أحزن لغيرما ضرورة .

وتنهدت بعمق ثم استطردت :

ـ منذ ملكت هذا المقهى وأنا دائبة على العناية به ، الأرض والجدران والأثاث تنال حظها كاملا من اهتمامى الكلى أما هم فينكلون بفلذات الإكباد ، عليهم اللعنة . .

ثم قبضت على ذراعى وقالت :

ـ لنبصق على الحضارة . .

وترددت طويلا بين انبهارى بالعظمة ومقتى للفزع والإرهاب ولم أدر كيف يمكن أن يتطهر من الحشرات ذاك البناء الشامخ .

وكان زين العابدين عبد الله أول من قال لنا :

ـ فى الجو غيم!

إنه يستمع إلى الإذاعات الأجنبية ويعرف أخبارا نادرة ، فحدثنا عن نشاط للمتسللين من أبناء فلسطين وما يتوعد به العدو من ردع . قال :

ـ ليس بعيدا أن تنشب حرب هذا العام أو العام المقبل .

ولكننا كنا واثقين من قوتنا ، فقال طه الغريب :

ـ لا خوف علينا إلا من تدخل أمريكا . . .

وفى ذلك النطاق دار الحديث . ولم يفسد الصفو فى تلك الفترة إلا هبة عارضة من حلمى حمادة كادت تقوض أركان حبه الراسخ . فقد توهم أن قرنفلة تعامله بعطف لا يليق بكرامته فرفض ذلك بإباء وقرر هجر المقهى لولا أن أمسك به أصحابه . وذهلت المرأة وراحت تعتذر إليه وهى لا تدرى بالدقة ما ذنبها . وراح يقول بعصبية :

ـ إنه لمقرف أن يضطر الإنسان إلى سماع نغمة واحدة . .

واستطرد بحدة :

ـ وأنا أكره الأصوات الباكية . .

وبحدة أعنف :

ـ ثم إننى ضقت بكل شىء . .

واعتبرنا المسألة عرضا للحال العامة وتجنبنا إحداث أى مضاعفات حتى تمر بسلام، ولم يغن فرح زين العابدين الخفى عنه شيئا فإن حلمى حمادة لم يتماد فى غضبه، ولعله ندم على ما فرط منه، ونال التأثر من قرنفلة غايته ولكنها لم تنبس بكلمة واحدة. وقد همست لى :

ـ آخر ما كنت أتوقع .

فسألتها بقلق :

ـ أتراه فطن إلى حديثك معى عنه؟

فنفت ذلك بهزة من رأسها .

ـ أله سابقة فى ذلك؟

ـ هى الأولى، والأخيرة كما أرجو . . .

ـ يحسن بك أن تقلى من الشكوى والرثاء .

فتنهدت قائلة :

ـ إنك لا تدرى كم أنه تعيس!

* * *

وفى أواسط ربيع العام وقع الاختفاء الثالث!

لم يثر تلك المرة أى تساؤلات ولا عنفا فى ردود الأفعال. تبادلنا النظرات. هززنا رءوسنا، نطقنا بكلمات لا معنى لها:

ـ كالعادة.

ـ نفس النتائج.

ـ لا جدوى من التفكير.

أما قرنفلة فقد صمتت طويلا فوق كرسى الإدارة ثم استرسلت فى الضحك طويلا حتى دمعت عيناها وجعلنا ننظر إليها من مجلسنا صامتين.

ـ اضحكوا.. اضحكوا...

وجففت عينيها بمنديلها الصغير وواصلت:

ـ اضحكوا، جفت الدموع ولكن لنا الضحك، الضحك أقوى من البكاء وأسلم عاقبة، اضحكوا من صميم القلوب. اضحكوا حتى يسمعنا أصحاب الحوانيت بشارعنا السعيد..

وسكتت دقيقة ثم استأنفت:

ـ هل نحزن لأمور تقع بانتظام مثل الشروق والغرب؟.. سوف يعودون، وسيجلسون بيننا كالأشباح، وعهد الله أن أسمى المقهى وقتذاك «مقهى الأشباح».

ثم نظرت إلى عارف سليمان وقالت آمرة:

ـ قدم كأسا لكل زبون من زبائننا الكرام لنشرب نخب الغائبين!

وانطوت السهرة فى كآبة شاملة . . .

على أننا سرعان ما نسينا همومنا القريبة التى تعد شخصية بالقياس إلى الأحداث الكبيرة التى اجتاحت الوطن . فقد تطايرت الشائعات وما ندرى إلا والجيش المصرى ينطلق بكل ثقله إلى سيناء ، فاشتعلت المنطقة كلها بنذر الحرب . ولم يداخلنا شك فى قوتنا ولكن . . .

ـ أمريكا ، هى العدو الحقيقى .

ـ إذا هجم الجيش انهالت علينا الإنذارات .

ـ سيتحرك الأسطول السادس .

ـ ستنطلق الصواريخ نحو الدلتا .

ـ ألا يصبح استقلالنا نفسه فى خطر؟

الحق أننا لم نشك فى قوتنا . تداعت كثير من القيم أمام أعيننا ولو تلوثت أيدى لا حصر لها ولكننا لم نشك فى قوتنا . وإنه لتفكير لا يخلو من سذاجة ولكن عذرنا أننا كنا مسحورين ، ومصرين على الأمل ، وبدا أنه فوق طاقتنا أن نكفر بأول تجربة وطنية خالصة جاءت فى ختام سلسلة من عصور الذل والاستعباد . ولبثنا متلهفين حتى استيقظنا على أعنف مطرقة صكت رءوسنا الثملة بنشوات العظمة . ولن أنسى ما زفره طه الغريب ، وهو أطعنا سنا ، فقد تجلى الأسى فى عينيه وقال :

ـ ها أنـا ذا عـلى حافة القبر ، وسـيجئ الأجل بـعد أسبوع أو شهر ، فيا ربى لمَ لم تعجل به قبل أن يدركنى هذا اليوم الأسود!

وأحرق الحزن قلوب الشعب البرىء ، ولـم يعد له من أمل فى الحيـاة إلا أن يرد الضـربة ويسـتـرد الأرض ، ولكنى أنصت هنا وهناك إلى قلوب تخـفق بـالشـمـاتة والفـرح ، وبدأت أدرك أن الصراع ليس صـراعا وطنيا خالصا ، وأن الوطن ينزوى حتى فى أشـد أحـوال المحن فى خـضم صـراع آخر يحتـدم حـول المصـالح والعـقـائد ، وجـعلت أراقب هذه الفكرة فـيمـا تلا ذلك من أيام وأعوام حتى وضحت جوانبها وتعرت جذورها ، فإذا بيوم ٥ يونية يستوى فى التاريخ هزيمة لقوم من العرب ونصر لقوم آخرين منهم أيضا ، وأنه جاء ليهتك الستر عن حقـائق ضـارية ، وليعلن حـربا طويلة المدى بين العرب أنفسهم لا بينهم وبين إسرائيل فحسب .

❊ ❊ ❊

وعقب وقـوع الهـزيمـة بأسـابيع عـاد الغـائبـون أو بالأحـرى عـاد إسـماعيل الشـيخ وزنب ديـاب وآخـران . وجدنا فى عـودتهم فرحة عابرة وسط الأحزان وتعانقنا طويلا .

وهتف إسماعيل الشيخ بصوت مضطرب :

ـ هنا نحن أولاء نعود .

ثم بنبرة أعلى :

ـ وقد قبض على خالد صفوان!

فقال محمد بهجت :

ـ كثيرون انتقلوا من مقاعد الحكم إلى أعماق السجون؟

ووقفت قرنفلة وراء الخوان وتساءلت :

ـ أين حلمى؟

ولكن أحدا منهم لم يجب فعادت تسأل بإلحاح وضيق :

ـ أين هو؟ . . ولِمَ لم يحضر معكم؟

لم ينبس أحد بكلمة بل وتجنبوا النظر نحوها فهتفت :

ـ ألا تريدون أن تتكلموا؟

ولما لم تسمع صوتا صرخت :

ـ لا! . . . لا!

ثم مخاطبة إسماعيل :

ـ تكلم ، قل أى شىء يا إسماعيل .

ثم تقوس ظهرها فوق الخوان كأنما تعانى تمزقا فى بطنها . لبثت كذلك مدة فى صمت شامل، ثم رفعت رأسها وهى تتمتم :

ـ الرحمة . . . الرحمة يا أرحم الراحمين!

وأوشكت أن تنهار لولا أن تلقاها بين يديه عارف سليمان، ثم مضى بها إلى الخارج . عند ذاك قال إسماعيل الشيخ :

ـ قيل إنه مات فى أثناء التحقيق .

وقالت زينب :

ـ هذا يعنى أنه قتل .

كان الحزن ـ كالفرح ـ ينسى بسرعة فى تلك الأيام . وقد قدمت العزاء لقرنفلة ولكنها لم تفقه لكلامى معنى .

وانداحت تلك الموجة الطارئة فعدنا نتابع الأحداث ونمضغ الأحاديث ونعانى الأيام فنحملها فوق كواهلنا ثم نمضى بخطوات ثقيلة متعثرة . نستعيذ من حدتنا بالتلاقى وكأننا نتقى ضربات المجهول بالتلاصق ، ومخاوف الاحتمالات بتبادل الآراء ، وهجمات اليأس العاتية بالنكات الساخرة الأليمة . والخطايا الكبرى بزفرات الاعتراف الحارة ، وفظاعة المسئولية بتعذيب النفس ، وتجهم الجو الخانق بالأحلام المفتعلة . لم نكف لحظة عما كنا فيه والساعات تمضى فى إثر الساعات ونحن نحترق ونتهالك ونخوض ظلمات فوقها ظلمات تحتها ظلمات .

وكان أشدنا مناعة حيال الوباء إمام الفوال الجرسون وجمعة مساح الأحذية ، فهما يرفضان الهزيمة ويصدقان الراديو ويحلمان بيوم النصر . ولكنهما بمرور الأيام مضى شعورهما بالكارثة يفتر ، واهتمامهما بالحياة اليومية يتصاعد ، ثم انحدرا فى طريق اللامبارة إلا ما استقر فى أعماق النفس من حزن دائم خفى . وأما جماعة الشيوخ فقد أرتدت مع الأيام إلى الماضى .

ـ لم نصل إلى مثل هذه الحال فى أى عهد من العهود .

ـ حسبنا ما كنا نستظل به من حماية القانون .

ـ وحتى أعنف أيام الاستبداد لم تخل من صوت معارضه حر . .

ـ وأيام الجهاد والنفى والفداء المجيدة كيف يمكن أن تنسى ؟ !

وما لبثوا أن رجعوا إلى الوراء أكثر وأكثر حتى استقروا فى عهد ابن الخطاب والرسول فتنافسوا فى نبش الماضى يستخرجون أمجاده يتسلون بها عن حضارهم .

وكان زين العابدين عبد الله يتابعهم بين الاهتمام والاستهانة ثم أفصح عن رأيه قائلا :

ـ الحل تملكه واحدة هى أمريكا !

وصادف رأيه هوى فى نفس عارف سليمان الساقى فقال :

ـ صدقت .

ثم أشار إشارة شاملة وقال :

ـ سيتغير كل شىء من جذوره ، وما هذه الصحوة إلا الانتفاضة الأخيرة قبل تسليم الروح .

وبقى الشبان وحدهم لا يسلمون أنفسهم للماضى ولا يأملون خيرا فى أمريكا ، ورويدا رويدا ، وفى أعقاب إفاقتهم من الصدمة ، راحوا يتكلمون عن معركة بعيدة المدى ، وصراع على مستوى العالم بين قوى التقدم والإمبريالية ، وعن تغييرات أساسية جوهرية فى الداخل . وهكذا . . وهكذا . . وهكذا .

وبخلاف المسألة العامة لم يحركنى شىء سوى ما طرأ من تغيير

ملموس على العلاقة بين زينب دياب وإسماعيل الشيخ . تسلل مرض مجهول إلى روحيهما فباتا غريبين أو كالغريبين حتى بت أعتقد أنهما واريا حبهما القديم التراب وأن كليهما قد استقل بحياته وأحزانه . وعند ذاك رجعت إلى ظنى الأول عن حبها لحلمى حمادة فملت إلى الأخذ به أكثر وأكثر .

وسرنى أن أرى قرنفلة وهى تستعيد نشاطها المألوف . واجمة متحفظة أغلب الوقت : تصغى إلينا بلا مشاركة ولا اندماج ، وتبدت أكثر جديةوأوغل فى الكبر .

وبمرور الأيام غابت وجوه، وترددت وجوه بين الغياب والحضور، واستمر الحال لا يكاد يتغير . وفى تاريخ متأخر نسبيا تهيأت لى ظروف وثقت ما بينى وبين بعض أصدقاء الكرنك، وعند ذاك علمت منهم ما لم يكن لى به علم، فاطلعت على خبايا الأحداث والقلوب وشربت الكأس حتى الثمالة .

« إسماعيل الشيخ »

حقا علمت ما لم يكن لى به علم .

وقد أثار إسماعيل الشيخ اهتمامى من أول لقاء ببنيانه القوى وقسماته الكبيرة الواضحة . فلم أر عليه سوى بدلة واحدة ، يرتديها صيفا وشتاء ، يخلع جاكتتها صيفا ويعيدها شتاء بالإضافة إلى بلوفر . ورغم فقره الظاهر حظى بالاحترام ، وقد نال أخيراً الليسانس رغم اعتقالاته المتقطعة .

ـ إنى ابن بيئة فقيرة جدا . هل سمعت عن حارة دعبس بالحسينية؟ أبى عمل فى مطعم كبدة ، أمى بياعة سريحة وهى تبيع أيضا الخوص والريحان فى مواسم القرافة ، إخوتى الكبار صبى جزار وسواق كارو وإسكافى ، مسكننا مكون من حجرة وحيدة فى فناء ربع ، الربع كأنه أسرة كبيرة يجاوز أفرادها الخمسين عدا ، وليس به حمام ولا ماء ، وبه مرحاض واحد فى الفناء تحمل إليه المياه بالصفائح ، وفى الفناء يجتمع النساء ، والنساء والرجال أحيانا ، يتبادلون الأحاديث والنكات وربما الشتائم واللكمات ويأكلون ويصلون .

وينظر إلى بتجهم ويقول :

ـ لم يتغير شيء جوهرى فى حارة دعبس حتى اليوم .

ولكنه يستدرك :

ـ غير أن المدارس فتحت أبوابها ، تلك نعمة لا يمكن إنكارها ، دخلت مع الداخلين ، ولعل أبى كان يتمنى لى الفشل حتى يتخلص منى بإلحاقى بحرفة مثل إخوتى ولكنى خيبت ظنه وواصلت النجاح حتى نلت الثانوية العامة ، وأمكننى الالتحاق بكلية الحقوق ، وعند ذاك غير الرجل رأيه وداخله زهو وعجب ، أيمكن حقا أن يصير ابنه وكيل نيابة؟ وثمة وظيفتان معروفتان جيدا فى حارتنا : الشرطى ووكيل النيابة ، وأهل حارتنا يتعاملون معهم كثيرا كما تعلم ، وصممت أمى على أن أستمر «ولو بعت عينى» . . والله وحده يعلم كم كلفها أن تبتاع لى بذلة تليق بطالب فى الجامعة ولكنها اعتبرتها كعقار يجب المحافظة عليه ، ويجوز إصلاحه أو ترميمه أو حتى تجديده ولكن لا يجوز الاستغناء عنه .

ثم بحدة :

ـ الحارة اليوم مكتظة بالتلاميذ والتلميذات ولكن مستقبلهم مشكلة متداولة بين الأمم !

وقد قامت الثورة وهو ابن ثلاثة أعوام ، فهو ابن من أبناء الثورة بكل معنى الكلمة . . ولذلك لم أخف عنه دهشتى لما حل به من آلام وقلت له :

ـ لقد ظنك البعض شيوعيا أو من الإخوان .

فقال بيقين :

ـ لا هذا ولا ذاك، وانتمائى الوحيد كان إلى ثورة يوليو، أما الآن . . وجعل يهز رأسه صامتا كأنما لا يدرى ما يقول، ثم قال :

ـ وقد عشت دهرا وأنا أظن أن تاريخ مصر يبدأ بالثالث والعشرين من يوليو، ولم أتجه للبحث عما وراء ذلك إلا بعد النكسة .

واعترف لى بأنه آمن بالاشتراكية المصرية وأن إيمانه بالدين لذاك لم يتزعزع فسألته :

ـ خبرنى عن إيمانك بها الآن؟

فقطب قائلا :

ـ كثيرون يصبون غضبهم عليها باعتبارها سببا من أسباب الهزيمة، ولكن الحقيقة التى يجب أن تعرف هى أنه لم تكن توجد فى حياتنا اشتراكية حقيقية، لذلك فإننى لم أتخل عنها وإن تمنيت أن أقطع الأيدى التى تطبقها، وذلك ما فطن إليه من بادئ الأمر حلمى حمادة الله يرحمه .

ـ لماذا؟

ـ كان شيوعيا!

ـ إذن كان يوجد بينكم غرباء؟

ـ أجل، ولكن ما ذنبنا نحن؟

وحدثنى عن زينب طويلا :

ـ عرفت زينب فى الحارة منذ الطفولة، هى تقيم فى نفس الربع أيضا، وكانت لنا ألعاب مشتركة تعرضنا بسببها لضرب بالعصا، ولما استوت صبية تجلت ملامحها، كانت تسير فتجذب الأنظار وتحرك الأشواق فأتصدى أنا للدفاع عنها مستمدا الشجاعة من ذكريات الفتونة فى حارتنا، وفى المرحلة الثانوية حال بيننا الرقباء والتقاليد ولكن حبنا كان قويا، يلهب المشاعر ويفرض ذاته على الجميع، وأخيرا وجدنا حريتنا فى الجامعة وأعلنا خطوبتنا وانتظرنا الزواج باعتباره ملاذنا الأخير، وها هى الأحلام تتبدد ويموت كل شىء.

وجدا فى الجامعة حرية لم يحلما بها من قبل، فوقت الطلبة لا يمكن أن يخضع لسيطرة حارة دعبس وتزمتها، وكل غيبة ستجد لها عذرا أو مبررا، لذلك أمضيا ساعات طويلة معا، وتعرفت بأصحابه، وأصبحت من أهل الكرنك، واعتقلت معه، ونضجت شخصيتها فوق ما كان يتصور.

وضحك عاليا وقال:

ـ طحنتنا أزمة الجنس، وتخبطنا حيارى طويلا، أحاطت بنا مغريات تجارب حرة تجرى من حولنا، وقلت لها يوما: «لا شك فى حبنا أو إخلاصنا وسوف نصبح زوجين، فما رأيك؟» وكنت أحتويها بين ذراعى فى عناق حار ولكنها قالت لى: لقد أقسمت لوالدى فقلت لها: «هذا سخيف ولا معنى له. ألا تسمعين ما يقال؟» فقالت فى ارتياب: «لست واثقة... ولا أنت!» وكنت أعانى آلاما عنيفة وكانت أيضا تعانى..

وساءلت نفسى إلى أى درجة تعتبر هذا الثورى ثوريا؟ . إنه ثورى من نوع خاص وهو لا يخفى إيمانه بالدين . وددت أن أسأله عن موقفه من الحرية الجنسية ولكننى خشيت أن يظن بى رغبة فى التسلل إلى أسرار زينب، فأبيت أن أستدرجه إلى البوح بما لا يريد البوح به .

ـ ومع ذلك فالحب الحقيقى يهب مناعة بخلاف ما يتصور كثيرون . ولكننى مازلت أذكر قوله أيضا :

ـ فى السجن اجتاحنا الضياع فاهتز بناؤنا المتين من أساسه .

وتذكرت أن الهزات العنيفة فى حياة البشر تعقبها استغاثات جنسية تشارف حد الجنون، فماذا يعنى يا ترى؟ . ولكنه عاف ـ فيما بدا ـ الرجوع إلى الموضوع . . وسألته :

ـ وحلمى حماده؟ .

فهتف :

ـ كان يتخطى التقاليد بكل عنف .

ـ أكان من نفس البيئة؟ .

ـ كلا، كان أبوه مدرس لغة إنجليزية، أما جده فكان عاملا بالسكك الحديدية .

ـ أكان يحب قرنفلة حقا؟ .

ـ أجل، لا يداخلنى شك فى ذلك . لقد عرفنا المقهى مصادفة ولكنه أصر على العودة قائلا : «لنعد إلى مقهى المرأة» فعجبت

لذلك ولكنه قال: «إنها جذابة. ألم تلاحظ ذلك؟» وكنا راغبين فى العودة كذلك، وقد أحببناها أيضًا كأصدقاء.

ولم تكن جاذبية قرنفلة موضع شك عندى فقد وقعت أنا نفسى فى إسارها ولكن هل يكفى ذلك لأعدل عن ظنى القوى فيما يتعلق بحب حلمى حمادة لزينب؟.. ألا يجوز أنه صرح بما صرح به مداراة لعاطفته الحقيقية؟!

- كان يحب قرنفلة، لعله لم يكن سويا فى عواطفه، لعله كان يروم عاطفة كالحب ولكنها ليست الحب نفسه، ولكنه على أى حال عاملها معاملة أمينة صادقة، لم يستجب قط لإغراء استغلالها رغم تيسره له، وهو لا يخلو من مثالية فى سلوكه، ومن ناحية أخرى كانت أحواله المادية حسنة، وحسبك أن تعلم أننا ندين فى ثقافتنا العامة للكتب المعارة من مكتبته.

- لعله عطف على تاريخها المجيد.

فضحك وقال:

- كان يصغى إليها متظاهرا بالتصديق ولكنه لم يؤمن بكلمة واحدة، وكان يحبها كما هى ولكنه طالما سخر من مزاعم التجديد فى الفن والتفرد بالسلوك المثالى.

فقلت له كشاهد محايد:

- لقد كنت مثالا طيبا فى الفن والأخلاق!

فقال بحزن:

ـ فاتت فرصة إقناعه!

ولكن لماذا قضى على إسماعيل الشيخ بالاعتقال؟ . خفت أن يجيب عن سؤالى ـ كما فى الماضى ـ بالصمت غير أنه قال مستأنسا بتغير الظروف والأحوال :

ـ كانت ليلة، وكعادتى فى فصلى الربيع والصيف كنت أنام على أريكة فى الفناء تاركا حجرتنا الوحيدة لوالدى، مستغرقا فى النوم عندما شعرت بنهار ينهمر على روحى كحلم، واستيقظت على هزة شديدة، فتحت عينى فضاع بصرى فى ضوء باهر يتدفق فى عينى، جلست فزعا فإذا صوت يسأل :

ـ أين مسكن الشيخ؟

فقلت :

ـ هنا، ماذا تريد؟ ، أنا ابنه إسماعيل . .

فقال بارتياح :

ـ عظيم .

وأطفأ الكشاف فساد الظلام؛ وبعد حين تبينت أشباحا :

ـ قم معنا .

ـ من أنتم؟

ـ لا تخف . . نحن من رجال الأمن .

ـ ماذا تريدون؟

ـ ستجيب على بعض أسئلة ثم تعود قبل طلوع النهار .

ـ دعونى أخبر والدى وأرتدى بدلتى .

ـ لا داعى لذلك ألبتة .

وقبضت يد على منكبى فاستسلمت، وسرت بينهم حافيا بجلباب النوم، ثم دفعوا بى داخل سيارة فجلست محاصرا باثنين، ومع أن الظلمة كانت كثيفة إلا أنهم عصبوا عينى وأوثقوا يدى، فسابت ركبتاى وتساءلت :

ـ لماذا تعاملوننى هذه المعاملة وأنا برئ؟

ـ اصمت .

ـ خذونى إلى مسئول وسترون!

ـ إنك فى الطريق إليه .

ركبنى رعب مميت . مميت بكل معنى الكلمة، ورحت أتساءل عن التهمة المأخوذ بها، لست شيوعيا ولا من الإخوان ولا إقطاعيا ولم يلفظ لسانى بكلمة تنال هيبة العهد الذى أعده عهدى منذ وعيت ما حولى .

توقفت السيارة فى مكان ما، أخرجت منها، ثم سرت معصوب العينين بين اثنين يقبضان على ذراعى، حتى دفع بى إلى مكان، انفكت القبضتان عن ذراعى . سمعت وقع الأقدام وهى تبتعد وصرير الباب وهو يغلق . كانت يداى قد تحررتا كما رفعت العصابة عن عينى ولكننى لم أر شيئا كأنما قد فقدت البصر .

تنحنحت فلم يجبنى أحد. توقعت أن تخف الظلمة باعتياد النظر فيها ولكنها لم تخف، ولم يند عن المكان صوت، ترى أى نوع من المكان هو؟! ، مددت ذراعى أتحسس المجال، تحركت بحذر شديد، سرت برودة الأرض فى قدمى، لم أعثر بشئ إلا الجدران، لا يوجد فى الحجرة شئ، لا كرسى ولا حصيرة ولا أى قائم، الظلام والفراغ والحيرة والرعب، والزمان فى الظلام والصمت يتوقف تماماً وبخاصة وأننى لم أعرف متى القى القبض علىّ، ولا فكرة لى عن متى تنقشع الظلمة أو متى تبعث الحياة فى تلك الجثة الشاملة. ولكن أحب أن أخبرك أن الإنسان يتحايل على المعاناة إذا تخطت حدودها، وأنه فى أعماق العذاب يتوثب لطرح همه باستهتار يستوى أن تعده قوة أو يأسا فاستسلمت للمقادير وقلت ليأت الشيطان إن كان مقدورا له أن يأتى، وليأت الموت أيضا. وكففت عن طرح الأسئلة التى لا جواب لها، ولكن طاب لى أن أذكر سلوك فيروس الإنفلونزا الذى يواجه المضادات الحيوية بخلق جيل جديد ذى مناعة ضد المضادات.

وسألته:

ـ لبثت واقفا؟

ـ عندما أنهكنى الإرهاق قرفصت، ثم تربعت على لاأسفلت، وبقدرة قادر نمت، هل تتصور ذلك؟، ولما استيقظت، وتذكرت، أدركت أننى فقدت موقعى من الزمن، أى وقت نمت؟، فى أى لحظة أنا من ليل أو نهار، وتحسست ذقنى، وقلت ستكون هى ساعتى الكسيحة..

ـ تركت طويلا؟

ـ نعم . . .

ـ والطعام؟

ـ كان الباب يفتح ويدفع إلى بطبق به جبن أو مادة مملحة ورغيف . .

ـ والضرورة؟

ـ فى ساعة محددة يفتح الباب أيضا فيدعونى عملاق كمصارعى السيرك ويقودنى إلى مرحاض فى نهاية طرقة فأتبعه مغمض العينين تقريبا تفاديا من ألم الضوء، وما أن يغلق الباب ورائى حتى يصيح بصوت كالرعد «أسرع يا بن الكلب . . هل تبقى النهار بطوله يا بن العاهرة؟» ولك أن تتصور حالى فى الداخل . .

ـ ولا تدرى كم يوما لبثت؟

ـ الله وحده يعلم فلحيتى عند كثافة معينة لم تعد تسعفنى . .

ـ ولكنهم حققوا معك ولا شك؟

فقال متجهما :

ـ أجل . . وجدتنى يوما أمام خالد صفوان!

وسكت مضيقا عينيه فى تأثر حتى شدنى إلى مجال انفعاله .

ـ مثلت أمام مكتبه حافيا رث الجلباب مهدم الأعصاب، ورائى

شخص أو أكثر وغير مسموح لى بالتلفت يمنة أو يسرة فضلا عن النظر فيما ورائى فلم أر من المكان شيئا وتركز بصرى الكليل فى شخصه وتحللت البقية الباقية من أدميتى فى رهبة شاملة . .

وارتسم الامتعاض فى قسماته مليا ثم واصل :

ـ ورغم كل شئ انطبع منظره فى أعماقى بقامته الربعة ووجهه الضخم المستطيل وحاجبيه الغزيرين الناميين إلى أعلى وعينيه الواسعتين الغائرتين وجبهته العريضة البارزة وفكيه القويين وسحنته الخالية من أى تعبير ، ورغم كل شئ أيضا خلقت بقوة اليأس أسطورة أمل فى ذاته فقلت :

ـ أحمد الله على أننى أجد نفسى أخيرا أمام الرجل المسئول .

فأسكتتنى لكمة جاءتنى من وراء فتأهوت عاليا ، أما هو فقال :

ـ لا تتكلم إلا إذا طولبت بجواب .

وسألنى عن اسمى وسنى وعملى فأجبت وعند ذاك سأل :

ـ متى انضممت إلى الأخوان؟

فذهلت لغرابة السؤال وأدركت لأول مرة نوعية التهمة الموجهة لى وقلت بصدق :

ـ ما انضممت إلى الإخوان فى يوم من الأيام .

مامعنى هذه اللحية إذن؟

ـ لقد نبتت فى السجن .

ـ أيعنى هذا أنك عوملت معاملة غير طيبة؟

فأجبته فى شبه استغاثة :

ـ كانت معاملة مرعبة يا سيدى وبلا أدنى مبرر .

ـ ما شاء الله!

أدركت أننى أخطأت ولكن بعد فوات الفرصة أما الرجل فرجع يسأل :

ـ متى انضممت إلى الإخوان؟

فشرعت فى الإجابة قائلا :

ـ ما انضممت . .

ولكن الكلام انقطع . غصت فى الأرض بطريقة مذهلة ثم ارتفعت الأرض متحدية ضعفى بما يشبه السحر ، وسرعان ما ذاب خالد صفوان فى الظلام . أخبرنى حلمى حمادة فيما بعد أن ماردًا يقف ورائى صفعنى بقوة فأغمى على . إذن قد أغمى على ، ثم وجدتنى فى الظلام الذى أخذت منه على الأسفلت . .

قلت برثاء

ـ يا له من عذاب! .

ـ وقد انتهى فجأة وعلى غير انتظار ، فى حجرة خالد صفوان أيضا ، ساقونى إليه فبادرنى قائلا :

ـ ثبت أن اسمك دون فى السجل لأنك تبرعت بقرش لبناء جامع ودون أن تكون لك صلة بهم .

فقلت بانفعال وتهدج :

ـ ألم أقل لك ذلك يا سيدى؟

ـ الخطأ له عذر أما التهاون فلا عذر له .

ثم بقوة :

ـ نحن نحمى الدولة التى تحرركم من كافة أنواع العبودية .

ـ وإنى من أبنائها المؤمنين .

ـ اعتبر الأيام التى أمضيتها هنا ضيافة ، وتذكر دائما أنك عوملت معاملة طيبة ، أرجو أن تتذكر ذلك دائما ، وأن عشرات الرجال سهروا الليالى فى جهد متواصل حتى ثبتت لهم براءتك .

ـ الشكر لله ولكم يا سيدى . .

وضحك إسماعيل الشيخ بمرارة عند تلك الذكرى فسألته :

ـ وهل قبض على لآخرين لنفس السبب؟

ـ كان يوجد بيننا اثنان من الإخوان ، أما زينب فقد حققوا معها لعلاقتها بى وسرعان ما أفرج عنها ، وبسببى أيضا قبض على حلمى حمادة ، فلما ثبتت براءتى ثبتت بالتالى براءته .

كانت التجربة قاسية جدا ، وبسببها كفر بجهاز من أجهزة الدولة هو المخابرات أما إيمانه بالدولة نفسها ، بالثورة ، فلم يتطرق إليه الشك أو الفساد وتصور أنها ـ المخابرات ـ تمارس أساليبها فى خفاء من المسئولين .

ـ فكرت عقب الإفراج عنى فى أن أرفع شكوى للمسئولين ولكن حلمى حماده منعنى بقوة .

ـ واضح أنه لم يكن يؤمن بالدولة نفسها !

ـ بلى .

وفى أعقاب النكسة اتجه إسماعيل لأول مرة لدراسة تاريخ مصر الحديث :

ـ لا أخفى عنك أنى أعجبت بقوة المعارضة وحريتها وبالدور الذى لعبه القضاء المصرى ، لم يكن العهد شرا خالصا وكان به عناصر فكرية جديرة بالاستمرار والنمو والازدهار ، وكان التنكر لها من أسباب نكستنا . . .

* * *

وحدثنى بعد ذلك عن اعتقاله الثانى :

ـ كنت فى زيارة لحلمى حمادة فى منزله ، غادرته عند منتصف الليل ، ألقى القبض على فور خروجى من البيت ، هكذا رجعت إلى حجرة الظلام والفراغ .

وتساءل فى حيرة عن التهمة التى ستوجه إليه ، وطال انتظاره لذلك وهو يعانى عذابات الجحيم حتى مثل مرة أخرى أمام خالد صفوان .

ـ وقفت صامتا مستفيدا من تجربتى السابقة ، متوقعا الشر ـ رغم ذلك ـ من جميع الجهات الأصلية ، وتفرس خالد فى وجههى وقال :

ـ يا لك من داهية، حسبناك يوما من الإخوان!

فقلت بنبرة ذات مغزى:

ـ وظهرت براءتى!

ـ ولكن ما خفى كان أعظم.

فقلت بإخلاص:

ـ إنى مؤمن بالثورة، هذه هى الحقيقة الوحيدة.

فقال بسخرية:

ـ الجميع مؤمنون بالثورة، فى هذه الحجرة يجهر الإقطاعيون والوفديون والشيوعيون بإيمانهم بالثورة!

وحدجنى بنظرة قاسية ثم سأل:

ـ متى انضممت إلى الشيوعيين؟

ووثب الرفض إلى حلقى ولكننى كتمته وارتفع منكباى بحركة عكسية كأنما ليخفيا قفاى، ولم أنبس.

عاد يسأل

ـ متى انضممت إلى الشيوعيين؟

وشعرت بالتأزم يلتف حول عنقى ولم أدر ماذا أقول فواصلت الصمت.

ـ ألا تريد أن تعترف؟

استسلمت للصمت كما تعودت أن أستسلم للبلاء فى الحجرة المظلمة فتمتم:

ـ طيب!!.

وندت عنه إشارة من يده. سمعت وقع أقدام تقترب فاقشعر بدنى. وإذا بشخص يقف إلى جانبى. بطرف عينى أدركت أنه أنثى. التفت نحوها فى دهشة وبدافع من شعور قهر خوفى، ورغما عنى هتفت «زينب!».

ـ ها أنت تعرفها ويهمك أمرها فيما يبدو.

ونقل عينيه الغائرتين بيننا ثم تساءل:

ـ ألا يهمك أمرها؟

تمزقت روحى دقيقة كاملة.

ـ أنت مثقف ولك خيال فهل تتصور ما يمكن أن يحل بهذه الفتاة البريئة فيما لو أصررت على الصمت؟

سألته بنبرة رثاء موجهة للدنيا جميعا:

ـ ماذا تريد يا سيدى؟

ـ إنى أسأل متى انضممت إلى الشيوعيين؟

فقلت دافنا آخر شعاع من أمل:

ـ لا أتذكر تاريخا معينا ولكننى أعترف بأننى شيوعى.

وسجلت اعترافى على ورقة ثم غادرت الحجرة بين حراسى.

أعيد إلى زنزانته فلم يلق تعذيبا إضافيا كما توقع بادئ الأمر ولكنه أيقن من الضياع.

ومضى عليه زمن لا يدريه حتى مضى به حارس يوما إلى باب مغلق وقال :

ـ لعلك اشتقت إلى رؤية صديقك حلمى حمادة!

وأزاح غطاء عن عين سحرية وأمره أن ينظر .

ـ نظرت فرأيت مشهدا غريبا تعذر علىّ احتواؤه لأول وهلة كمن يرى صورة سريالية، ثم تبين لى أن حلمى حمادة معلق من قدميه وهو صامت ساكن، مغمى عليه أو ميتا فتراجعت فزعا أترنح وغمغمت :

ـ هذا غير . .

وانحبس صوتى لدى التقائى بنظرته المصبوبة على، وتساءل :

ـ غير ماذا؟

شعرت بغثيان فعاد يسأل :

ـ هذا غير . . غير ماذا؟

ـ غير إنسانى أليس كذلك؟! ، والأحلام الدموية التى تحلمون بها أهى إنسانية؟

ومضى زمن أصيب فى أثنائه بإنفلونزا حادة عقب نزلة برد فى ذلك الشتاء . واستدعى للقاء خالد صفوان وهو فى دور النقاهة . وكانت أقصى أمانية فى ذلك الوقت أن ينقل إلى أى سجن أو معتقل خارجى ولكن الرجل بادره قائلا ببرود :

ـ إنك سعيد الحظ يا إسماعيل .

فرفعت إليه عينى بذهول فقال :

ـ ثبتت براءتك أيضا هذه المرة !

خارت قواى وشعرت برغبة عميقة فى النوم .

ـ وكانت زيارتك لحلمى حمادة بريئة ، أليس كذلك؟

فقلت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ بلى يا سيدى . . .

ـ إنه شيوعى متحمس ، أليس كذلك؟

لم أدر ماذا أقول وعاودنى الخوف .

ـ لقد اعترف ، ومن حسن حظه أيضا أنه قد ثبت أنه لا ينتمى لتنظيم أو حزب ونحن نصيد اليوم العاملين لا الهواة !

فاستعدت الأمل فى النجاة فقال :

ـ واضح أنك تلتزم بالصمت احتراما لعهد الصداقة !

وسكت لحظة ثم استطرد :

ـ وذاك الإيمان بالصداقة يجعلنا نطمع فى صداقتك .

ترى متى يأمر بالانصراف؟

ـ كن صديقا لنا ، قلت إنك تنتمى للثورة وأنا أصدقك ، فلتكن صديقا لنا ، ألا يرضيك ذلك؟

ـ إنه ليسعدنى يا سيدى .

ـ كلنا أبناء ثورة واحدة وواجب علينا أن نصونها بقوة، أليس كذلك؟

ـ طبعا .

ـ ولكن لا بد من موقف إيجابى، نريد صداقة إيجابية!

ـ إنى اعتبر نفسى صديقا منذ البدء .

ـ أيرضيك أن تعلم بأن شرا يتهدد الثورة وتسكت عنه؟

ـ كلا!

ـ هذا ما نطالبك به، وستذهب إلى زميل ليهديك سواء السبيل، ولكننى أحب أن أذكرك بأننا قوة تملك كل شئ ولا تخفى عنها خافية، تكافئ الصديق وتنكل بالخائن!

وعند تلك الذكرى اسود وجهه واشتد أساه فتساءلت لأخفف عنه :

ـ أكان بوسعك أن ترفض؟

فقال بحزن :

ـ ستجد دائما عذرا ما، ولكن ذلك لا يجدى!

هكذا رجع من معتقله مرشدا ذا مرتب ثابت وضمير معذب . وحاول أن يسوغ عمله بانتمائه الثورى ولكن القلق لم يفارقه أبدا .

ـ لأول مره أجتمع بزينب وأنا غريب لدرجة، لى حياتى السرية الخاصة المجهولة لها والتى يجب أن تظل مجهولة . .

ـ أخفيت عنها الأمر؟

ـ نفذت الأوامر والإرشادات . .

ـ لتلك الدرجة آمنت بقوة تسلطهم؟

ـ أجل، وهو إيمان حقيقى، يضاف إليه الخوف الذى استهلك روحى . . . وشعورى بالسقوط، ولم أفلح فى إقناع نفسى بالشرف فكان على أن أستهتر بكل شىء ولم يكن ذلك باليسير علىّ نظرا لتركيبى الأخلاقى واستقامتى الروحية فوقعت فى التخبط والعذاب . . والأدهى من ذلك أننى وجدت زينب فى صورة جديدة تغشاها كآبة عميقة ولا أثر فيها للشعور بالنجاة فزدت إحساسا بالغربة . .

ـ ولكنها صورة متوقعة كما أنها قابلة للتغير .

ـ ولمنى لم أعثر على زينب الأصلية أبدا، وكانت ذات روح مرحة وثابة، وكان يخيل إلىّ أن روحها لا يمكن أن تقهر، ولكنها انتهت، وحاولت تشجيعها، ولكنها فاجأتنى مرة بقولها: «ما أحوجك أنت إلى من يشجعك!».

وحدث أمر خارق فى الأسبوع الأول عقب الإفراج عنه . كانا يسيران معا بعد الانصراف من الكلية فسألته :

ـ أين تذهب؟

ـ إلى الكرنك ساعة ثم إلى البيت .

فقالت وكأنما تخاطب نفسها :

ـ أود أن أخلو إليك بعض الوقت .

خيل إليه ثمة سرا يريد أن ينجلى فقال :

ـ نذهب إلى الحديقة .

ـ أريد مكانا آمنا !

وحل حلمى حمادة المشكلة بأن دعاهما إلى شقة قرنفلة ـ وهى شقته أيضا ـ وتركهما منفردين . وقال إسماعيل بقلق برئ :

ـ ستظن قرنفلة بنا الظنون .

فقالت باستهانة :

ـ لتقل ما تشاء !

وعبث به الشك ، وأخذ يدها بين يديه فقبضت على يده ورفعتها إلى عنقها ، وتلاقيا فى قبلة طويلة ، وجدها بعدها مستسلمة بين يديه ، قال :

ـ كان الأمر مفاجأة ، غمرتنى سعادة ولكن شابها قلق ، وانعقدت فوق رأسى تساؤلات مبهمة ، وكدت أسألها عن سر استسلامها ولكننى لم أفعل . .

وتبادلنا النظر حتى قال :

ـ لعلها الأحداث قد هزتها !

ـ لعلها . .

ـ وساورنى ندم ، واتهمت نفسى بأننى انتهزت فرصة ضعف وانهيار .

ـ هل تكرر ذلك؟

ـ كلا .

ـ بلا محاولة من جانبك أو جانبها؟

ـ بلا أى محاولة . وظلت روابطنا الخارجية وثيقة ولكن روحينا انفصلتا . .

ـ موقف غريب .

ـ إنه الموت البطئ . وهو من ناحيتى له ما يفسره أما من ناحيتها فلغز من الألغاز .

ـ لاحظت تغيراً ما فى علاقتكما فى الكرنك ولكننى حسبته عارضا .

ـ سألتها عما عانت فى السجن فى المدة القصيرة التى قضتها فيه ولكنها أكدت لى أن معاناتها كانت قصيرة وتافهة . . وقد شاب إيماننا الثورى امتعاض راسخ أصبحنا أكثر استعدادا للإصغاء للنقد، انطفأ الحماس، تضاءلت الشعلة، أجل إن الإيمان الأساسى لم يقتلع، ولكننا قلنا إن الأسلوب يجب أن يتغير وأن الفساد يجب أن يستأصل وأن أعوان الساديين يجب أن يذهبوا، الثورة المجيدة أصبحت محاصرة . .

وذات مساء عادا إلى مناقشة الموضوع مع حلمى حمادة فى مسكنه، وقال حلمى حمادة :

ـ إنى أعجب كيف أنكما ما زلتما تؤمنان بالثورة!

فقال له إسماعيل :

ـ إن وجود الأمعاء بالجسم البشرى لا يقلل من جلال العقل . .

فقال حلمى ساخرا :

ـ إننا نلجأ عند العجز إلى التشبيه والاستعارة . . .

ثم قال لهما :

ـ علينا أن نعمل . .

وأطلعهما على منشور سرى سيقوم بتوزيعه مع بعض الرفاق . فقال لى إسماعيل :

ـ فوجئت بتصريحه ، فزعت فزعا شديدا ، تمنيت أننى لم أسمعه ، وتذكرت عملى السرى الذى يطالبنى بالإبلاغ عنه فورا ، تذكرته فتزلزل كيانى كله ، وتراءت لعينى أعماق الهاوية التى سأتردى فيها . . .

ومضت ساعة بعد ذلك ، حلمى يتكلم ونحن نصغى أو نعلق بكلمات مقتضبة ، عقلى شارد تماما وحزنى ثقيل ، وقلت له :

ـ اعدل عن النشاط ومزق المنشور .

فضحك هازئا وقال :

ـ يا لك من ماجن حقا ! . . .

ثم مستدركا :

ـ إنه ليس الأول ولا الأخير !

وغادرنا بيته حوالى العاشرة. سرنا صامتين. أصبحت أشق أوقات علينا تلك التى نخلو فيها إلى أنفسنا. وافترقنا، هى بحجة العودة إلى الربع وأنا بحجة الذهاب إلى الكرنك. وضربت فى الشوارع على غير هدى. عجزت عن اتخاذ قراراً. وطيلة الوقت عذبنى الخوف على نفسى، على زينب، لم أتخذ قراراً. رجعت إلى الربع حوالى منتصف الليل. استلقيت فوق الأريكة بملابسى، قلت لنفسى «لأتخذن قرارا أو «أجن»، ولكننى لم أتخذ القرار، قررت تأجيل ذلك إلى الصباح ولكننى لم أنم، وكنت ما أزال مسهدا حين اقتحموا علىّ خلوتى..

ـ تعنى رجال الأمن؟

ـ أجل.

ـ فى نفس الليلة؟

ـ فى نفس الليلة.

ـ ولكنه أمر مذهل وغير مفهوم.

ـ إنه السحر، ولا تفسير له إلا أنهم كانوا يراقبوننا معا ويتصنتون علينامن بعيد.

فقلت له مواسيا:

ـ على أى حال فإنك رفضت أن تبلغ عن صديقك.

ـ حتى ذلك لا أستطيع أن أدعيه بصدق لأننى لم أتخذ قرارا...

هكذا وقع الاعتقال الثالث. ومثل أمام خالد صفوان قبيل الفجر فاستقبله بوجهه البارد وقال:

ـ خنت الأمانة وسقطت فى أول امتحان.

فلم أنبس. فقال:

ـ حسن، نحن لا نقسر أحدا على صداقتنا.

وجلد مائة جلدة ثم ألقى به فى الزنزانة، فى الظلام الأبدى.

وحدثنى عن مصرع حلمى حمادة فقال إنه مات فى حجرة التحقيق. كانت به عصبية وجرأة، استفزتهم إجاباته، تلقى صفعات فهاج غضبه وحاول أن يرد الاعتداء بمثله فانهال عليه حارس باللكمات حتى أغمى عليه، ثم تبين أنه فارق الحياة.

ـ وعشت فى الظلام زمنا لا أدريه حتى ذبت فى الظلام...

واستدعى ذات يوم فظن أنه ماض لمقابلة خالد صفوان ولكنه رأى وجها جديدا، فأبلغه بنبأ الإفراج عنه.

ـ وقبل أن أغادر المبنى علمت بكل شئ.

ولاذ بالصمت مليا ثم استطرد:

ـ بقصة الطوفان من أولها إلى آخرها.

ـ تعنى الحرب؟

ـ أجل، مايو، يونية. حتى خبر القبض على خالد صفوان نفسه!

ـ يالها من ساعة! . .

ـ تخيل حالى إن استطعت!

ـ أجل . . أستطيع ذلك .

ـ وكانت الدنيا قد عبرت ذروة النكسة وأفاقت من الذهول الأول فوجدت الميدان مكتظا بالأشباح والأحاديث والحكايات والشائعات والنكات . . وانعقد الإجماع على أننا كنا نعيش أكبر أكذوبة فى حياتنا .

ـ وهل شاركت فى ذلك الإجماع؟

ـ بكل قوة العذاب الذى كان يفتت مفاصلى، تبخر إيمانى وفقدت كل شئ .

ـ أظنك اليوم جاوزت ذلك الموقف؟

ـ درجات ولا شك، على الأقل فإننى حريص على تراث الثورة . . .

ـ وكيف كان موقف زينب؟

ـ مثلى تماما ولكنها تكلمت قليلا ثم صمتت إلى الأبد، أذكر أول لقاء لنا عقب الإفراج عنى . تعانقنا بميكانيكية، قلت لها ببرارة : لنتعارف من جديد فنحن بإزاء دنيا جديدة . فقالت لى : إذن دعنى أقدم لك نفسى . أنا شخص بلا اسم ولا هوية . فقلت لها : إنى أعرف الآن تماما معنى قبض الريح . فقالت لى : الأفضل أن نعترف بحماقتنا وأن نحترمها فهى كل ما بقى لنا . فأخبرتها عن

مصرع حلمى حمادة فانخطف لونها وشردت طويلا ثم قالت نحن الذين قتلناه كما قتلنا الألوف غيره. فقلت ـ غير مؤمن بما أقول ـ ولكننا ضحايا. ألا يمكن اعتبار الحمقى ضحايا. فقالت بامتعاض وسخرية إن ذلك يتوقف على درجة حماقتهم، ثم وقعنا جميعا فى الدوامة كما تعلم ومضت تتقاذفنا خطط الحرب ومشاريع السلام ولا يلوح لنا شاطئ وثمة بارقة أمل وحيدة حيث يوجد الفدائيون.

ـ أذن فأنت تؤمن بالفدائيين؟

ـ وعلى اتصال بهم وأفكر جادا فى الانضمام إليهم، ولا ترجع أهميتهم إلى أعمالهم الخارقة ولكن إلى مزاياهم الفريدة التى تمخضت عنها الأحداث، إنهم يقولون لنا إن الإنسان العربى ليس كما يعتقد الكثيرون ولا كما يعتقد هو فى نفسه ولكنه يستطيع أن يكون معجزة فى الشجاعة إذا شاء.

ـ ولكن هل توافقك زينب على ذلك؟

فسكت طويلا ثم تساءل:

ـ ألم تدر بأنه لم يعد بينى وبين زينب إلا ذكريات زمالة قديمة؟! ودهشت لاعترافه بالرغم من أننى توقعته وأنه جاء مؤيدا لملاحظاتى واستنتاجاتى، وسألته:

ـ هل حدث ذلك فجأة؟

ـ كلا، ولكن ليس من اليسير اختفاء رائحة جثة إلا بدفنها، فى وقت ما وبخاصة عقب تخرجنا شعرنا بأنه آن لنا أن نشرع فى

الزواج، وتحدثت معها فى ذلك رغم مشاعرى الأليمة الدفينة، فلم تعترض ولكنها لم توافق، أو قل إنها لم تتحمس، وتحيرت فى معرفة السر ولكننى ارتحت إلى الموقف بصفة عامة، ثم لم نعد نطرق الموضوع إلا فى فترات متباعدة، ولم نواظب على اللقاء كما كنا نفعل، وفى الكرنك كنا نتجالس كزميلين لا كحبيبين، ولم أنس أن بوادر تلك الحال بدأت فى أعقاب الاعتقال الثانى ولكنها استفحلت بعد الاعتقال الثالث، ومضت العلاقة الخاصة تهن وتتفتت حتى ماتت تماما . .

ـ مات الحب أذن؟

ـ لا أظن . . .

ـ حقا؟

ـ نحن مرضى، أنا مريض على الأقل وأعرف أسباب مرضى، وهى مريضة أيضا، وقد ينتعش الحب يوما وقد يستسلم لموت أبدى، ونحن على أى حال ننتظر ولا يؤرقنا الانتظار . . .

إنهما ينتظران. ومنذا الذى لا ينتظر؟